المدخل الاجتماعى للاعلام العربى – [1]
دراسة فى أشكاليات التوصل الفكرى من خلال الاعلام المرئى والمسموع

دكتورة/ نسمة أحمد البطريق
كلية الاعلام – جامعة القاهرة

مقدمة :

تجتاز النظرية العامة للأتصال الجماهيرى مرحلة هامة وحاسمة من مراحل النمو والتطور ، فرضتها ظروف المجتمع الانسانى ، فأصبح الفصل بين علم الاتصال الجماهيرى والنظرية الاجتماعية من الأمور الصعبة بل المستبعدة فى المجالات البحثية التى تخص أكثر المجالات التصاقاً بالمجتمع وتعاملا مع الحياة والانماط الإجتماعية المتعددة . ويمكن إرجاع أهمية العناية بالمدخل الإجتماعى للأعلام المسمعى المرئى فى الدول العربية إلى عوامل عديدة نحصرها فى النقاط الآتية :

(أ) إن دراسة هذه الجوانب من الناحية النظرية والعملية أحد المجالات التى يطرقها الفكر الاعلامى ويعبر هذا الاهتمام عن أحد الاتجاهات فى علم الاتصال وهو معرفة أسباب اللاتوازن الاعلامى والثقافى وخاصة الوقوف على المعوقات التى تعترض العملية الاعلامية والثقافية والابداعية من خلال الاعلام المرئى المسموع خاصة بعد هذه الثورة الهائلة فى مجال اتصالات الفضاء التى أتاحت للقنوات المرئية ازدهاراً وانتشاراً قد يفوق قنوات البث المسموع هذا من ناحية ومن ناحية أخرى دخول المجتمع العربى عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال بكل أبعاده وثقله فى الوقت الذى تزايدت فيه وتفاقمت المشكلات

الإجتماعية والاقتصادية والغزو الثقافى والفكرى الاجنبى وازدياد التبعية السياسية للدول المصدرة للتكنولوجيا وما يترتب عليه من تعميق الازمات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية بين اطار العالم العربى من جانب وبين تلك الاقطاع ودول العالم المتقدم الصناعى من جانب آخر ولا يتسع الوقت هنا لشرح تلك الأزمات ومظاهرها ونتائجها البعيدة والقريبة على مستقبل السياسات الاعلامية العربية . وما يهمنا أيضاحه هنا خطورة عملية نقل التكنولوجيا الحديثة للاعلام والاتصال فى بيئة لم تتوافر بها بعد المعوقات الرئيسية لاقامة مجتمع عربى أعلامى حديث .

(٢) إن الثورة التكنولوجية الهائلة فى مجالات الاتصال والاعلام وتدفق المعلومات وما صاحب هذه الثورة العلمية من تطوير فى الآلات الالكترونية الأمر الذى أدى الى منافسة الاعلام المرئى المسموع عن طريق التليفزيون والفيديو كاسيت النظم الاعلامية الأخرى خاصة الخطية . هذا الوضع يزداد خطورة إذا علمنا أن هناك ظواهر اجتماعية أخرى معاكسة لاقامة بنية أعلامية فعالة عربية اهمها تفشى الأمية والبطالة بأنواعها الظاهرة والمقنعة والتضخم السكانى فى المدن والاختلال الطبقى والثقافى ... فرض هذا الوضع العديد من المشكلات الإجتماعية والثقافية والإعلامية التى يجب دراستها بمنظور أجتماعى .

(٣) أصبحت البحوث والدراسات العلمية تؤكد على ضرورة الربط بين علم الاتصال والنظرية الاجتماعية وذلك لإمكان تحديد المشكلات التى تواجه الاعلام المسمعى المرئى . لقد أصبح المدخل الاجتماعى للأعلام والاتصال الجماهيرى خاصة فى مجال الوسائل المسموعة المرئية يضم العديد من وجهات النظر التى قد تصل فى كثير من الاحيان إلى مستوى النظريات العلمية والتى تبلور جميعها أهمية الصورة المتحركة كشكل من أشكال الإبداع الفكرى والفنى الأكثر تعاملا مع الفئات المختلفة من الجماهير إلا أنه لا يحقق هذا التعامل الأدوار الوظيفية المتعددة من تأثير وأقناع وارشاد وتوجيه وتعليم . هذا القصور يمكن إرجاعه فى أغلب الأحيان الى طبيعة المجتمع الذى تتعامل معه الصورة المتحركة ، وقد يكون من المناسب إذاحصرت المقومات الرئيسية للمجتمع

الاعلامى حتى يمكن إيضاح ما قد يعترض الاعلام السمعى المرئى فى الدول العربية من عوائق وسلبيات .

(٤) إن الصورة بصفة عامة كوسيلة للأبداع الفنى وكأساس منهجى للغة الصورة المتحركة لم تتناولها البحوث الاعلامية العربية بالتحليل والدراسة العلمية لبيان مقوماتها الاجتماعية والفكرية . فالصورة كشكل من أشكال الإبداع الفكرى والثقافى والفنى ، نظر لها على الأقل فى فترات الظلام الثقافى قبل عصر النهضة العربية الحديثة فى بداية القرن التاسع عشر على أنها شكل من الأشكال الفنية المحرمة التى لا يجب التعامل معها ، ومع النهضة الثقافية والاجتماعية ، قام رواد الفكر العربى الحديث بتقديم العديد من الحجج والقرائن ، اباحت دخول هذا الشكل الفنى الحياة الثقافية والفكرية مع بدايات القرن العشرين مستندين فى ذلك الى قواعد وتعاليم الشريعة الإسلامية[٢] . ولكن دخول الصورة المتحركة كمفردة من مفردات لغة المرئيات لم يتناولها الفكر الاعلامى العربى بالدراسة والتحليل .

تلك الملاحظات النظرية وغيرها تشير الى أهمية دراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرئى المسموع خاصة وان الدول العربية تتعامل مع وسائل تكنولوجية غربية عن بيئتها الصناعية . وتحاول جاهدة اقلمة ظروفها وبيئتها الفكرية حتى تتلاءم وتكتيك تلك الوسائل وهذا على عكس الدول الغربية الصناعية المتقدمة التى مرت بمراحل صناعية وحضارية ، حققت للمجتمع تطوراً فكرياً وثقافياً واجتماعياً يتناسب وحضارة الآلة بل فرضت تلك المجتمعات ثقافة متميزة قوامها

(٢) ذلك التيار كان وليد حركات التحديث الاجتماعى والثقافى والفكرى التى قادها رواد الفكر العربى الاسلامى ابتداء من رفاعة رافع الطهطاوى الى جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وفيما يخص دخول الصورة كشكل تعبيرى حديث الحياة الثقافية فى العالم العربى – انظر فتوة الشيخ محمد عبده فى جريدة – الوقائع – ١٩٨١ . حول هذا الموضوع انظر – بسمة أحمد البطريق – المداخل الاجتماعية والثقافية للسينما المصرية . رسالة دكتوراة الدوله – كلية الآداب قسم الصحافة والاعلام الاجتماعى جامعة بروكسب بلجيكا ١٩٧٩ رسالة غير منشورة – بالفرنسية – أنظر أيضاً حول هذا الموضوع محمد رشيد رضا – تاريخ الاستاذ محمد عبده – مطبعة المنار – القاهرة ١٩٣١ أيضاً أنور عبد الملك (بالفرنسية) .

Idiologie et Rennaissance National L'Egypt Editions Anthropos. Paris, 1968.

الصورة المتحركة كمرحلة متقدمة من الابداع الفكرى والثقافى .

إن المقولة التى تؤكد على سهولة الصورة المتحركة فى التأثير وتلخيص الفكر والمعلومات هى مقولة صحيحة ولكن غير كافية لتأكيد صلاحيتها ، وذلك لأن لغة المرئيات لن تحقق القدر الكافى من التأثير على الفئات المختلفة من الجماهير إلا بتوافر شروط المرور بحضارة الكلمة المكتوبة ، ومما لاشك فيه أن النظرة الاجتماعية التى ميزت المجتمعات على أساس الشكل التكنولوجى والصناعى الناقل للفكر والمعرفة والثقافة أصاب التعبير والتحليل كما سنوضح فيما بعد .

الأطار النظرى والمنهجى

إن التحليل المنهجى لمفهوم المدخل الاجتماعى الذى تطور منذ النصف الأخير لهذا القرن لم يعد قاصراً على دراسة النظم الاعلامية بمعزل عن بيئتها الاجتماعية بمقوماتها الفكرية والثقافية والفنية والاقتصادية والانثربولوجية .. بل امتد هذا المنظور ليحلل جزئيات مضمون النظم الاعلامية ويفسر البعد البنائى والتركيبى ، كما يدرس الخصائص العامة لفئات الجمهور المختلفة وذلك لتحديد نوع العلاقات الجدلية القائمة بين القوة الفكرية المنتجة والفئات الاجتماعية المتقبلة لهذا المضمون الفكرى .

ولقد ركزت الدراسات المنهجية التقليدية المرتبطة بمفهوم المدخل الاجتماعى للاعلام الجماهيرى على سلوكيات الفئات المختلفة للوسائل الاعلامية المتعددة . ودراسة المنافسة بين الأنظمة الاعلامية وكيفية الوصول الى الجمهور العريض غير المتجانس لتحقيق مبدأ الانتشار الاقصى ، وتتبع خصائص الفئات المختلفة المستقبلة للأنظمة الاعلامية والثقافية ، لم تعد هذه المحاور والمداخل المنهجية ، رغم أهميتها فى التحليل ودراسة عملية الاتصال كافية لحسم قضية المنظور الحديث للمدخل الاجتماعى للاعلام ولذلك أصبح من الضرورى وضع فروض علمية جديدة لتحليل التكوين البنائى للوحدات الاعلامية السمعية البصرية وايضاح مدى التداخل بين النظم الإعلامية الخطية من ناحية والنظم المسموعة المرئية وحصر الأهمية النسبية لمكانة الكلمة المكتوبة كمقومة من

المقومات الاساسية الداخلة فى التركيب البنائى للمضمون الاعلامى لتلك الوسائل .

وإذا كانت الدول العربية تنتظر العديد من الأدوار الوظيفية من تلك الوسائل لمواجهة تحديات العصر الحديث خاصة فيما يتعلق بالتنمية الإجتماعية والثقافية ، فهناك قضية أخرى تفرض نفسها ، يجب تحليل جوانبها وهى كيفية ألنجاح عملية الاتصال الجماهيرى خاصة فى المجتمع العربى من خلال حضارة الصورة المتحركة ، وتحديد الشروط الرئيسية الواجب توافرها فى الوسط الاجتماعى المتلقى لها لتحقيق علاقات ايجابية متبادلة .

إن من المعروف أن من بين الأسس الهامة الداخلة فى انجاح عملية التواصل الفكرى من خلال الانظمة الألكترونية الحديثة السمعية المرئية الناقلة للفكر توافر معانى مشتركة مقبولة بين القوة الفكرية المنتجة للرسائل الاعلامية وبين القوة المتقبلة لهذه الأفكار . فقد تكون المعانى المطروحة مشتركة فى المحيط الاجتماعى من خلال انظمة التواصل التقليدية ولكن معالجتها بهذه الوسائل المسموعة المرئية قد تفقدها التوازن القائم مما يؤدى الى تدفق الرسالة الاعلامية فى اتجاه واحد وكفقد مفهومها الحقيقى وتغير من مسارها وهدفها النهائى .

فهناك فيصلا منهجياً بين الفكر والثقافة المكتوبة أى الرسائل الخطية والفكر والثقافة التى تتدخل التكنولوجيا الحديثة فى نقلها خاصة عن طريق الصورة المتحركة . ولذلك كان من الضرورى .

(٥) إعادة دراسة الفروض النظرية التى توصل اليها العلماء فى المجالات الاجتماعية والانسانية المختلفة منفردة وإعادة توظيفها لمعالجة هذه القضية الهامة والملحة بعد هذه الثورة التكنولوجية والالكترونية الهائلة التى ساهمت وأدت الى زيادة الهوة بين الجمهور المتلقى بخصائصه الادراكية والتربوية والإجتماعية التقليدية الثابتة ، وبين متطلبات المجتمع الاعلامى الحديث المتطور وعلى وجه الخصوص القضايا المرتبطة بأشكالية التداخل الحضارى بين النظم الاعلامية المختلفة ، وأصبحت من القضايا الملحة للكشف عن متطلبات وخصائص تلك البيئة الاعلامية التى فرضها التقدم العلمى والصناعى لمقابلة تلك الرسائل

المركبة والتي تتدخل أكثر من حضارة في تكوينها . لقد أصبحت البحوث النظرية التي ترتكز على المنهج التحليلي للمحتوى الفكري والاعلامي لوسائل الاعلام والثقافة خاصة النظم المسموعة المرئية من الفروع المتطورة للمدخل الاجتماعي للاتصال الجماهيري ، من حيث إبراز أهمية دراسة مضمون هذه الوسائل ليس فقط كوحدة فكرية تعكس فكر وثقافة المجتمع في مرحلة من مراحل تطوره التاريخي بل لتحديد نوع العلاقة المتداخلة والداخلة في تكوين محتواها الفكري والفني .

وبدون تفسير نظري وعلمي لهذا الجانب يصعب تحديد ابعاد محوراً من المحاور الأساسية للمشكلات التي تعترض الاعلام الأذاعي السمعي المرئي في الوطن العربي .

وإذا كان موضوع الدراسة يمس مدخلا جديداً من المداخل الحديثة لعلم الاتصال الجماهيري فهناك العديد من النظريات الاجتماعية لمعالجة بعض الجوانب المنفردة لهذه القضية ، وسنحاول الارتكاز عليها والاسترشاد بها لوضع تصور شامل وأولي .

فمهمتنا محددة بل وتنحصر في تقديم تفسير نظري يمس مدخلا من المداخل الاجتماعية للاعلام السمعي المرئي . ولن يكون تعرضنا للنظم الخطية الا في حدود حصر أهمية الكلمة المكتوبة كمنهج من المناهج اللغوية الخطية سابقة على الاذاعة المسموعة المرئية لأبراز تأثيرها الايجابي لانجاح عملية الاتصال الجماهيري من خلال تلك النظم الاعلامية المركبة .

هذه الدراسة تثير إذاً قضايا ومحاور متعددة يمكن حصرها في ثلاثة نقاط أساسية :

أولا : بعض الصعوبات النظرية التي اعترضت مسار هذا الاتجاه الإجتماعي للاعلام الجماهيري .

ثانياً : بزوغ الاتجاه الاجتماعي في مجال الاتصال الجماهيري .

ثالثـــاً: متطلبات المجتمع الاعلامي الحديث ومنهجية دراسة المدخل الاجتماعي للاعلام المرئي المسموع في الوطن العربي .

أولا : بعض الصعوبات المنهجية التى أعترضت مسار هذا الاتجاه الاجتماعى للاعلام الجماهيرى

ويمكن ايضاح هذا المدخل النظرى من خلال وجهتين :

أ – أرتباط مناهج البحث فى مجال العلوم الانسانية خاصة فى دول العالم الصناعى بمناهج البحث الخاصة بالعلوم الطبيعية .

ويرجع الافتقار الى أسس نظرية تحكم وتفسر الخلفية الاجتماعية القادرة على توضيح نوع العلاقات المتعددة بين الأنماط الاجتماعية وحصر درجات تفاوتها ومدى قدرتها على تقبل الرسائل الثقافية والفنية الى سبب جوهرى وهو غياب التفسير السوسيولوجى فى البحوث والدراسات الاجتماعية خاصة بعد التطور التكنولوجى والصناعى وسيادة الآلة فى الحياة الاجتماعية ، فزيادة تلك النزعة الامبيريقية الوضعية وزيادة الاهتمام بتطبيق المنهج العلمى الدقيق على الظواهر الاجتماعية تفسيراً ملائماً للتطبيق .

فتعميم الظواهر وتطبيق أسلوب التحليل الاحصائى وأختيار العينات أصبح هدفاً فى حد ذاته ويرجع سيطرة هذا الاتجاه فى تلك الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية الى رغبة علماء الاجتماع منح العلوم الاجتماعية معايير العلم الدقيق وأدوات منهجية دقيقة وصارمة وفروض توجه البحث ، وقوانين تشبع الحاجة الى نسق نظرى متجانس ومترابط . ومن نتائج هذا الاتجاه الوصفى ازدياد الانفصال شبه التام بين العلم وفروضه من جهة وبين التفسير الاجتماعى من جهة أخرى ، كل ذلك تحت ستار الدقة المنهجية وتبنى فكرة النموذج الواحد الذى يمكن تطبيقه على الظواهر المماثلة مهما كان الاختلاف فى البيئة الاجتماعية .[٣]

ورغم سلبيات هذه النزعة التحليلية الوضعية التى اتصفت بها الدراسات الغربية الا أننا لا ننكر أهميتها فى مجالات الدراسات الاعلامية خاصة مناهج البحث التى أمدت نظريات الاتصال منطلقات علمية ونماذج وأدوات

(٣) د. السيد محمد الحسينى . نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة أيضاً أنظر د. محمد على محمد مقدمة فى البحث الاجتماعى . دار النهضة . بيروت ١٩٨٢ .

نظرية ساعدت على تفسير آليات العملية الاتصالية . ولعل نموذج العالم الأمريكي Laswell (لاسويل) من تلك النماذج الهامة التي وجهت[٤] البحوث والدراسات الى منطلقات اجتماعية متعددة فارتكازها على عناصر عملية الاتصال الجماهيري ودراسة كل عنصر على حدة فتح مجالا علمياً واسعاً ساعد على اضافة العديد من المفاهيم والابعاد في تكوين تصورات ومنطلقات تبنتها المدارس الأوربية[٥] .

ب سبب خاص بالدول العربية ويرتكز أساساً على نقطتين

أولا : أنشغال الباحثين والعلماء العرب بقضايا التحرر السياسي والاقتصادي ، وثانياً صعوبة تتبع أسباب التفتت الاجتماعي والسياسي في العالم العربي .

أولا : أدى التركيز على ربط الدراسات العربية في المجالات العلمية المختلفة للنظريات السائدة في دول العالم الغربي الصناعي المتقدم ، من ناحية وانشغال الباحثين والعلماء العرب بقضايا التحرر السياسي والاقتصادي والثقافي الذي يواجه العالم العربي . للأنشغال بايجاد مفهوم موحد للتخلف الاقتصادي والسياسي ومحاولة العثور على حلول عملية للتغلب على الاشكاليات المطروحة والمفاضلة بين الأيديولوجيات ومدارس الفكر الاقتصادي من اشتراكية ورأسمالية ليبرالية بهدف رسم فلسفة للتنمية الاقتصادية .

وكان من الطبيعي أن تتأثر النظم الاعلامية وتخطيط برامجها في مثل هذه الخلفية الاقتصادية السياسية . ورغم جدية البحوث والدراسات المرتبطة بالتنمية الاجتماعية ومحاولة تحديد مفهوم التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية[٦] ولم تساهم تلك التصورات في وضع منهجاً تطبيقياً لتطوير البنية

(٤) حول هذه النقطة راجع د. حيان محمد رشتي - الأسس العلمية لنظريات الاعلام - دار الفكر العربي / القاهرة ١٩٧٨ .

(٥) هم دراسات تلك المدرسة والتي تخص ذلك التطور الاجتماعي ، أنظر

Roger causs, les nouvelles syntheses creditiques. Editions instut de socidogie. bruxlles 1963-

Thoverong. Radio et television dans la vie quotidienne Editions de l'Ins Socio. Bruxelles 1971.

(٦) د. عادية رمضان « التنمية وأزمة البحوث السياسي نشار » عدد يونيو ١٩٨٥ ٤٢ - ٦٩ أنظر

الاساسية والهياكل الاجتماعية التى يرتكز عليها المجتمع الاعلامى الحديث ورسم سياسة شاملة لمواجهة الاعلام العربى اخطار الغزو الثقافى والفكرى عن طريق الوسائل الاعلامية المسموعة المرئية ، وتقديم مفهوم واضح ومكتمل للمدخل الاجتماعى للاعلام العربى ، كمدخل يحلل ويفسر الظواهر الاعلامية كظواهر أفرزها المجتمع وفقاً لتطور تاريخى تنصهر بداخله مقومات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية محددة وأيضاً يجل التكوين المنهجى والبنائى للوحدة الفكرية والكشف عن مقومات هذه اللغة الحديثة ومدى تمثيلها للانماط الاجتماعية المختلفة .

ثانياً : لعل هناك أسباب أعمق توضح نظريات حديثة تتناول هذا المنظور الحديث للاعلام العربى ينطلق من واقع الظواهر والانماط الاجتماعية وعلاقتها بالفكر السياسى والثقافى وتفسيرها من واقع خلفية تاريخية تتبع مسار المجتمع وحركته وترجع هذه الاسباب جميعاً الى صعوبة تتبع أسباب التفتت الاجتماعى والسياسى فى تلك الدول وذلك للميل المتعمد لاختصار المشكلات الاجتماعية والسياسية والثقافية وتحجيمها فى صورة لا تتناسب والواقع المرير الذى يعيشه المجتمع العربى وطبقاته المختلفة ، ونتيجة للتقنيات المتبعة من قبل الحكومات فى تلك الدول وتنوعها وفقاً للنزعات السياسية وتحقيقاً لمبدأ سلطوية الدولة ، وانفرادها فى تطبيق ايديولوجية واحدة لا تمثل الوعى الفكرى والثقافى للطبقات والأنماط الاجتماعية الأخرى .(٧)

ويمكن القول بصفة عامة أن الصعوبات التى اعترضت مسار الاتجاه الاجتماعى للاعلام الجماهيرى فى الوطن العربى ترجع الى أن ممارسة العمل الاعلامى العربى يتبع القرارات السياسية ويرتبط بها وهذا يعنى أن العمل

= أيضاً - د. عمر ابراهيم الخطيب « الجوانب الايديولوجية والسياسية والاجتماعية فى الفكر الكنولوجى العربى » - مجلة العلوم الاجتماعية العدد ٤ - شتاء ١٩٨٤ ص ٩ - ٢٨ . أنظر أيضاً - د. انور عبد الملك « الفكر العربى فى معركة النهضة - دار الاداب - بيروت الطبعة الثانية - ١٩٧٧ .

(٧) د. عبد الملك عودة - تعقيب على دراسة د. غسان العطية - « دور الجامعة العربية فى الاعلام » ندوة جامعة الدول العربية - الواقع والصورة مركز دراسات الوحدة العربية ابريل ١٩٨٣ ص ٤١١ - ٤٤٢ .

الاعلامى ترجمة لواقع السياسة ولواقع صناعة القرار فى صورته الاجتماعية الشاملة .

وكل دولة من دول العالم يعيش تلك التناقضات والظروف ، وقد تختلف بعضها فى السمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العامة إلا أنها تعيش جميعاً التبعية الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية بكل أبعادها ومظاهرها . فاذا اختلفت بعض المظاهر من حيث الشكل إلا أن العوامل والاسباب التى أدت الى تلك التبعية تكمن فى أعماق المجتمع ولا تزال آثارها تحكم وتوجه بعض الانماط الاجتماعية سنداً لها لتحقيق أهداف معاكسة للمصلحة العامة[٨] .

---

(٨) مرجع سابق د. نادية رسمى - التنمية وأزمة التحول السياسى .

ثانياً : بزوغ الاتجاه الاجتماعى فى دراسة الاتصال والاعلام الجماهيرى

أصبحت البحوث النظرية التى ترتكز على التحليل الاجتماعى والمنهجى التركيبى والبنائى للمحتوى الفكرى لوسائل الاعلام والثقافة المسموعة المرئية من الفروع المتطورة لنظرية اجتماعيات الاتصال والاعلام الجماهيرى واصبح هذا النوع من الدراسات وجهة يتجه اليها العلماء والباحثين فى دول العالم الصناعى فى الغرب خاصة الوسائل المسموعة المرئية كفرع حديث لنظرية الاتصال الجماهيرى . فالتقدم العلمى فى مجال مناهج البحث قدم وسائل وأدوات لتحليل ودراسة المضمون الاعلامى لتلك الوسائل واستكشاف العلاقات اللغوية والبنائية لتحديد العلاقات المتداخلة بين الاشكال التعبيرية والثقافية المختلفة من جانب وتحديد موقف المتلقى من هذه الوحدة الفكرية والثقافية وكيفية تعامله معها من جانب آخر .

ذلك المنظور الاجتماعى الحديث مر بمراحل عديدة ، ولعل من المفيد الاشارة فى هذا المجال لنموذج العالم الامريكى Lasswel الذى كان له الفضل فى تطوير النظريات الاجتماعية التى خصت بالتحليل والدراسة العناصر المختلفة بهذا النموذج . إلا أنه أغلب هذه الدراسات نظرت الى مضمون الرسائل الاعلامية نظرة منفصلة كل الانفصال عن المضمون الثقافى والفكرى واعتبرت وسائل الاعلام الجماهيرى مجرد وسيط بين منتج ومتلقى للرسالة يمكن الاستغناء عنها[٩] .

وتبنت المدرسة الأوربية خاصة الفرنسية التيار الفكرى الذى يرى ضرورة انطلاق الدراسات الاجتماعية الخاصة بالوسائل السمعية المرئية من منظور تفسيرى لخصوصية النظم السمعية المرئية كنظم هيأت لظهورها وتطورها مقومات اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية ومدى تأثير التابع الحضارى وما هيأه من مقومات ايجابية على التكوين المنهجى والبنائى للغتها المركبة ، أى

(٩) مرجع سابق - د. جيهان رشتى - الاسس العلمية لنظريات الاعلام حول نفس الموضوع أنظر :
Lyman Bryson, the communication of ideas. Harper New York-1949.

دراسة الطبيعة الاجتماعية لعلم الاجتماع أو لنظرية الاعلام الاذاعى السمعى المرئى ، لاستنتاج قوانين تلك الظاهرة وتحديد خصائصها وابعاد النظرية التركيبية[١٠] .

فالدراسات التقليدية الخاصة بتحليل المضمون او المحتوى الاعلامى تناولت هذا النتاج من الناحية الكيفية والكمية ، وبالرغم من أهمية تلك الدراسات القصوى فى حصر اهتمامات المجتمع المتنوعة فى فترة زمنية محددة واستخدام هذه النتائج لتحديد الانماط المختلفة للانتاج الاعلامى وموقفه من الفكر والثقافة وتحديد الاسلوب المتبع ، الا أن هذا النوع من الدراسات لايمكن الاعتماد عليه بمفرده كعنصر وكأداة للتحليل والنقد الاجتماعى لمضمون وسائل الاعلام والاتصال الجماهيرى خاصة الاعلام السمعى المرئى وتحديد موقف الثقافة والاعلام من القضايا الهامة المرتبطة بالمجتمع وكيفية معالجة هذه الموضوعات من تلك الوسائل الاعلامية المتطورة التى فرضت طرقاً ومناهج قد لا تتقابل وتتلاقى بادراك بعض الانماط الاجتماعية المختلفة فى المجتمع .

ان دخول هذه الوسائل الحديثة بمختلف وتعدد اشكالها وخصوصياتها حياة الأفراد والشعوب أصبحت تشكل ليس فقط السلوك الاجتماعى والتربوى بل تتدخل فى التكوين الفكرى والثقافى والسياسى .

وأصبحت إعادة دراسة الفروض النظرية التى توصل اليها العلماء فى مجالات العلوم الاجتماعية المختلفة وتوظيفها لمعالجة هذه القضية الهامة والكشف عن مقومات هذه اللغة الحديثة وبعض الاسس النظرية التى ترتكز عليها وكيفية تعاملها مع الفكر والثقافة من القضايا الهامة والملحة التى يجب اخضاعها للتحليل والبحث العلمى المتعمق .

---

(١٠) نفس المؤلف راجع :

N.Chomesky. Deepps Structures Surface and Sementic Cambridge mas. R.Berthes L'empires des signes, Geneve skin 1970.

Le Plaisir dut exte. Paria? 1972

اختلاف المناهج الاعلامية فى تناول المنظور الاجتماعى :

واختلفت المناهج الاجتماعية فى الدراسة والتحليل باختلاف الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى يرتكز عليها المجتمع فى مسيرته التاريخية ولقد أنطلقت الدراسات الاعلامية فى الولايات المتحدة الامريكية من خلال تفسير اقتصادى وسياسى واهمل الجانب الثقافى والفكرى . واصبحت الدراسات الاعلامية تتعامل مع المضمون الاعلامى باعتباره مضمون منفصل عن المضمون الثقافى . فالمضمون الاعلامى لا يعكس بالضرورة ثقافة المجتمع لأنه يقدم الموارد الثقافية فى صورة مبسطة وسطحية تفقد فى كثير من الأحيان الثقافة جديتها وانعكاساتها الفكرية فى الوسط الاجتماعى . ووفقاً لهذا المنظور من الدراسات الاعلامية اعتبر المضمون الاعلامى سلعة تعرض فى سوق الثقافة والفكر ووفقاً لقانون العرض والطلب الذى يحدد ملامحه وخصائصه المستهلك الاعلامى[١١] .

وكان من نتيجة هذه النظرة اهتمام الباحثين والعلماء بالمنهج العلمى المتبع فى دراسة المضمون الاعلامى والتأثير . وأهمل دراسة الوسيلة كظاهرة اعلامية وتكنولوجية تؤثر فى المضمون ، كما أهملت المقومات التحليلية والتركيبية للغة المرئيات ، كعامل من العوامل القادرة على توضيح العلاقات المتبادلة والكشف عن العلاقات المتبادلة بين المستهلك والمنتج الاعلامى اى بين المستقبل والمضمون الثقافى والاجتماعى .

وتطورت مناهج البحث الخاصة بالتحليل المنهجى لعنصر التأثير الاعلامى لوسائل الاتصال الجماهيرى وعنصر الانتشار Audiences خاصة بعد أن قدم Lazarsfeld لازار سيفيلد منهجاً جديداً فى التحليل والدراسة يؤكد فيه على دور قادة الرأى والجماعات الاساسية فى الاقناع والتأثير خاصة فى مجال الدعاية السياسية والتجارية[١٢] ورغم أهمية تلك النظرية فى تطوير البحوث

---

(١١) O. Burgelin "Les communications de Masse dans la societe industrielle" Systemes partiels de communication.

(١٢) حول هذا الموضوع انظر مرجع سابق - د. جيهان أحمد رشتى ص ١٨٣ ص ٢٣٨ .

الاعلامية الا أنها أكدت أتجاها سائداً وهو غياب الدراسات الخاصة بتحليل خصائص الوسيلة وقدرتها على التأثير كشكل ناقل للفكر والثقافة وكظاهرة أعلامية وثقافية واجتماعية وتكنولوجية استمدت قدرتها فى التأثير والاقناع من خلال التطور الأجتماعى والثقافى .

ضرورة الانطلاق من دراسة الوسيلة الاعلامية

فكما أشرنا من قبل أصبح ضرورة الكشف عن المقومات التركيبية والبنائية للمضمون الاعلامى وتتبع الادوار السلوكية المختلفة والكشف عن التأثير الاجتماعى لتلك الوسائل الاعلامية والثقافية من أهداف الدراسات الحديثة فى الأعلام والاتصال الجماهيرى .

ويختلف الاساس النظرى الذى ترتكز عليه الدراسة فى الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة لطبيعة البيئة الاجتماعية والسياسية والوسط الذى يتحرك بداخله الحدث الاعلامى والثقافى وأيضاً لطبيعة التكوين الفكرى . وقدرات الجمهور المتلقى . فلقد انطلقت فى الولايات المتحدة الامريكية تلك الدراسات وكما أشرنا من قبل ، من منظور اقتصادى فوظفت فروض النظرية الاعلامية لتحليل الظواهر الاقتصادية وحصر العوامل المؤثرة فى فئات الجمهور المختلفة لقياس درجة تفضيله لأنواع معينة من المحتوى الثقافى أو الفكرى أو السياسى أو الترفيهى للوسيلة الاعلامية . فالعامل المسيطر والموجه لعملية الانتاج الفكرى والثقافى هو مبدأ الربح المادى ، هذا الوضع يتناسب وطبيعة المجتمعات الصناعية المتقدمة التى تختلف فى بيئتها الاجتماعية والسياسية الدول الآخذة فى النمو . فالبيئة الاجتماعية وخاصة البيئة الاعلامية فى الدول الصناعية المتقدمة محصنة لمثل هذه الحرية فى الأختيار بين المواد الثقافية والاعلامية المتنوعة لان المقومات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية المواتية قد لا تتوافر بصورة متكاملة فى الدول النامية أو دول العالم الثالث بصفة عامة ، لافتقار بيئتها الاعلامية الى المقومات الاساسية لاقامة مجتمع اعلامى بصورة فعالة .

ومن هنا كانت هناك ضرورة لتدخل الدولة لتوجيه مثل هذا الأنتاج

الفكرى والثقافى بدرجات متفاوتة حتى فى الديمقراطيات الحديثة فى أوربا مثل فرنسا وانجلترا .. لحماية الافراد من هذا الغزو الفكرى المتعدد الانماط والذى قد لا يتقابل والمصلحة العامة للقاعدة العريضة للافراد . فوسائل الاعلام والثقافة خاصة الاعلام الاذاعى السمعى المرئى ينتظر منه العديد من الادوار التنموية إذا ما أحسن التعامل معه ووجه الوجهة الصحيحة .

بعض الاتجاهات الحديثة فى دراسة مضمون الوسيلة الاعلامية

(أ) قدم العالم الفرنسى Edgard Morin « أدجار موران » تحليلا نظرياً لدراسة جانب من الجوانب هذا المنظور الاجتماعى اعتبر اسهاماً واضافة جديدة فى مجالات الدراسات الاجتماعية الخاصة بوسائل الاعلام الجماهيرى . فقدم تعريفا جديداً للثقافة الجماهيرية وثقافة الاتصال الجماهيرى على اعتبار أن الثقافة بمفهومها التقليدى الجاد ، أصبحت مادة اساسية لتغذية المضمون الاعلامى الحديث ، وانطلاقاً من هذا التعريف امكن تحديد ودراسة المضمون الاعلامى من منطلق جديد يساعد على اظهار ماقدمه التطور التكنولوجى من وسائل وامكانيات تزيد من امكانيات الوسيلة الاعلامية على نقل أهم الملامح الثقافية والاجتماعية[١٣] .

فانطلاقاً من دراسة الظواهر الاجتماعية يمكننا الوقوف على أهم الاختلافات فى المضمون الاعلامى على أساس ما هيأه المجتمع المعين من مقومات أجتماعية وفكرية وتطور تكنولوجى .

وتتشكل ثقافة الاتصال أو الثقافة الجماهيرية فى النهاية وتتحدد ملامحها وفقاً للعلاقات الجدلية بين تلك الطبقة المنتجة للفكر والطبقات المستقبلة له ، اى بين المنتج والمستهلك لتلك الوحدات الفكرية والثقافية . ومحصلة تلك العلاقات التى تطورت على مر العصور هى التى حددت مفهوم الثقافة

(١٣) Morin. K Espit du Temp. Grassit. Paris, 1968. Nouveau courants dans L'etude des communications de masse. Rapport . UN.E.S.O 1969.

الجماهيرية ان صانع الرسالة الاعلامية أو المبدع أو الفنان أو المثقف ينتج مضمونه الثقافي والاجتماعي بالوسائل والادوات الثقافية المتاحة ، ليعبر عن سياسة وفكر وملامح العصر الحديث ويفجر الأفكار الكامنة التي تراود افراد الطبقات الاجتماعية المختلفة . فالرسالة الاعلامية تجمع في اطار وحقل واحد المنتج والمستهلك ويبدو ان هذا هو الشرط الاساسي لتفهم الجمهور المستقبل لها على وعيه الاجتماعي والسياسي والثقافي من خلال المضمون الفكري والثقافي الذي افرزه كل من المنتج والمستهلك . ومن هنا يتفق « موران » من خلال ذلك التعريف ومقولتي « كارل ماركس » الشهيرة ان المنتج يخلق المستهلك « وجيمس جويس » المنتج هو المستهلك .

(ب) ولقد رسم ابراها مولز اطاراً منهجياً جديد لتعريف الوسيلة الاعلامية من منظورها الاجتماعي قد يتفق مع منهج « موران » ويتلاقى في أهمية دراسة الخصائص الاجتماعية والثقافية كنظم تمخضت وتشكلت من خلال التطور الحضاري للمجتمع ، لتحديد مفهوم الثقافة الاعلامية ، أو ثقافة الفيضاء الا أن مولز يعرض الثقافة بمفهومها الواسع الشامل كمحصلة حضارية افرزها المجتمع من خلال التتابع الحضاري ، وبين الثقافة الجماهيرية أو ثقافة الاتصال التي افرزها التطور التكنولوجي الحديث .

ان الثقافة التقليدية وفقاً « لمولز » لا تتغير ولكن الوسيلة التكنولوجية كشكل ناقل لها هي التي تغير من تلك الثقافة ومحتواها الفكري . ولقد أضاف جديداً في هذا التحليل وهو الفرد فالفرد الاجتماعي الذي يعيش في مجتمع محدد يؤثر ويضيف وحدات الى تلك الثقافة كما يتأثر بمحصلة هذه الثقافة النهائية . فالتقدم الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي ينطلق دائماً من الفرد والى الفرد .

ولا يفهم من هذا التحليل الذي نقدمه ان جميع الافراد في المجتمع يعيشون الواقع الاجتماعي والثقافي بنمط واحد من الادراك ، فهناك عوامل ومقومات فكرية تميز بين درجات الادراك والقدرة الانتاجية للفكر والثقافة .

فهو يخص الطبقة المفكرة والمنتجة للثقافة والفكر باهتمام بالغ كقوة دافعة ومحركة للثقافة والحضارة .

ان الفرد المنتج كالنظام المفتوح يكتسب مهارات وقدرات جديدة وفقاً لسمات الاطار الاجتماعى والسياسى والفكرى .. الذى يتحرك بداخله . ان الوسائل الاعلامية تتعامل مع هذا الاطار العام للمجتمع فهى تستمد قوتها فى التعبير عن تلك السمات المكونة للأنظمة الاجتماعية الجزئية بخصائصها المختلفة والمكونة للمجتمع ككل .. اى وفقاً لموقف النظم والمؤسسات الاجتماعية من تلك الطبقة المنتجة للثقافة .

ومن هنا يتضح لنا أهمية الفرد المنتج كعامل مؤثر فى الثقافة الحديثة أو ثقافة الاتصال « ثقافة الفيفساء » ، ويمكن قياس فاعلية وايجابية الأدوار الوظيفية لتلك الوسائل من خلال ما يضيفه الافراد من فكر وثقافة لمحصلة الانتاج الثقافى فى المجتمع .

ووفقاً لهذا التعريف وهذا التحليل الذى يعتبر مدخلا لعلم اجتماع معرفة على الاتصال فهو يجمع بين الطبيعة الاجتماعية والثقافية للفهم ويربطها بظروف المجتمع ومشكلاته المتعددة وبموقف نظرية الاعلام والاتصال الجماهيرى من تلك السياقات الاجتماعية والفكرية والثقافية .

فالمجتمع هو الاطار العام الذى يجمع القدرات المتعددة ويهيىء المقومات الثقافية وأدوات ووسائل التعبير عن الانماط الاجتماعية المختلفة .[١٤]

(ج) اضاف العالم الكندى ماك لوهان ابعاداً هامة فى التحليل ودراسة ذلك المنظور الاجتماعى . فقد حصر اهتمامه فى أهمية الشكل الناقل للمحتوى والمضمون وأهمية الوسيلة التكنولوجية والالكترونية فى تشكيل الفكر والثقافة وأيضاً فى تشكيل مهارات الانسان وقدراته الادراكية . ولقد اعتمد فى تحليله على معادلة Lasswel لاسول الشهيرة ، لقد جمع العالم بالاتصال والجمهور المتلقى فى اطار واحد هذا الاطار يحدد بالشكل التكنولوجى للوسيلة

(١٤) انظر ابراهام مولز Sociodynamique de la Culture. Editions Mouton, Paris 1969.

الاعلامية – أى أن التطور التكنولوجى والصناعى الذى هيأ لظهور تلك الوسائل أن أيضاً الانسان العصرى خصائص وقدرات عديدة ساعدته على مواجهة تلك الوسائل بشكل متطور . وبالرغم من الانتقادات التى وجهت الى تلك النظرية والتعارض فى وجهات النظر فى تقيمها ، الا أن هناك شبه اجماع على فاعليتها فى توجيه البحوث الاعلامية الى وجهة جديدة فى الدراسة وتحليل الشكل الناقل لمحتوى الفكر والثقافة .[١٥]

إن أهمية تلك النظرية فى رأينا تنطلق من تعريف للشكل الناقل للمعرفة ، فكل شكل جديد أو أداة جديدة للمعرفة تحتوى الأشكال السابقة لها ، فالتليفزيون مثلا كشكل حديث أو (حضارة التليفزيون) أو الأعلام السمعى المرئى ، يحتوى الاشكال والحضارات السابقة له . فكيفية التعامل مع الاشكال السابقة هى التى تحدد فاعلية تعرضنا للاشكال الحديثة . فالوسيلة الحديثة امتداد للقدرات الذهنية والفكرية والادراكية التى تكونت من خلال طريقة تعاملنا مع الوسائل السابقة .

ان الحضارة السمعية المرئية أو حضارة الصورة المتحركة تحتوى على حضارات ثقافية سابقة عليها وهى حضارة الطباعة وحضارة الاذاعة أو حضارة الصورة .

---

(١٥) من أهم علامات المدرسة البلجيكية فى مجال المدخل الاجتماعى للاتصال انظر مرجع سابق
. Clauses, Roger, les nouvelles Iyntheses Critiques

انظر مارشال ماك لوهان La Galaxie Gutenberg editions Mame / Seuil Paris
1972.

ثالثاً : رسم منهجية لدراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرئى المسموع فى الوطن العربى

يتضح مما سبق اهمية المنطلقات الاجتماعية والحضارية كمحور من المحاور الأساسية التى قامت عليها دراسات وآراء رواد الفكر النظرى للمدخل الاجتماعى والثقافى للاتصال الجماهيرى بصفة عامة ان دراسة الوسائل الاعلامية التكنولوجية الحديثة ودراستها من زاوية واحدة أى كوسيلة وشكل تكنولوجى فقط قدمه التطور العلمى والصناعى لن يثرى هذا المنظور البحث الاجتماعى والاعلامى ولن يعمل على ايضاح وتحليل العلاقات المتداخلة داخل الوحدة الفكرية التى يعكسها الاعلام المرئى المسموع .

لكن تحليل ودراسة تلك الظاهرة باعتبارها انعكاس حضارى واجتماعى وفكرى ونتيجة من نتائج التحديث والتطور الثقافى والاجتماعى . هذا النوع من الدراسات المتعمقة يمكنه ايضاح واضافة العديد من العوامل السلبية التى تعرقل مسار عملية الاتصال الجماهيرى من خلال تلك الوسائل وحصر المشكلات والعوائق التى تعترض العمل الاعلامى كما يمكن لهذا التحليل الاجتماعى للاتصال ان يحدد الاهداف ويشير الى البدائل التى من شأنها دفع وانجاح عملية الاتصال الجماهيرى من خلال الاعلام المركب .

هذا المنهج الاجتماعى لدراسة الاعلام والاتصال الجماهيرى لا يقتصر على حصر مقومات العملية الابداعية والثقافية ، ولكن أيضاً يحدد كيفية تعامل واستقبال الفئات الاجتماعية المختلفة لتلك التاجات الفكرية والثقافية والفنية .

وبذلك نصل الى نقطة البدء فى التحليل الاجتماعى للاعلام المرئى المسموع التى لاتقتصر فقط على حصر المقومات الاجتماعية والثقافية والحضارية والاقتصادية ولا على دراسة الجوانب اللغوية وكيفية تعامل الوسائل الاعلامية السابقة عليها بمعطيات الفكر والمعرفة فى المجتمع من حيث خصوصية لغة المرئيات كنظام متميز له عناصره ومقوماته . ولكن تجمع بين المنهجية فى دراسة الظاهرة الاعلامية المسموعة المرئية من أجل الوقوف على خصائص البيئة الاعلامية من حيث أهميتها فى تحديد قدرة المجتمع على الممارسة الثقافية والفنية

والابداعية من خلال تلك النظم الاعلامية المركبة من ناحية ، وعلى تحديد مقومات اللغة الاعلامية الحديثة (التى حدد وحصر اطارها رائد علم اللسانيات الحديثةف دى سوسيور) كنظام لغوى أفرز عناصره التقدم الاجتماعى والثقافى وفقاً للرموز المكتسبة على طول مراحل التتابع التاريخى والحضارى[١٦] .

وانطلاقاً مما سبق يمكن حصر تصورنا لمنهاجية دراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرئى المسموع فى الوطن العربى من خلال دعامتين اساسيتين :

الأولى : وحدة الظاهرة الاعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية وتكاملها .

الثانية : خصائص البيئة الاعلامية .

الدعامة الاولى : وحدة الظاهرة الاعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية واللغوية وتكاملها

وانطلاقاً مما سبق تبين منطلقاتنا الخاصة المرتبطة بدراسة الظاهرة الاعلامية حيث نحصر العناصر المختلفة لتلك الظاهرة من حيث أنها وحدة اجتماعية وثقافية وحضارية ولغوية متكاملة . تلك النظرة ترتكز على أهمية الربط بين الجوانب الثقافية والفكرية من طرف والديناميكية السوسيولوجية من طرف آخر كعملية تتفاعل فى اطار تاريخى محدد . واعتبار التطور التكنولوجى والصناعى والعلمى عامل من العوامل الدافعة والمطورة للعقلية الاجتماعية القادرة على تقبل النتاجات الثقافية والفكرية من ناحية ومن ناحية اخرى اعتبار هذا التطور عامل من العوامل المحددة لقدرات ومهارات الجمهور المستقبل للصورة المتحركة كعنصر ووحدة لغوية للاعلام المرئى المسموع . ان دراسة هذه العناصر مجتمعة تقدم للباحث الاعلامى أدوات تساعده على استكشاف

---

(١٦) انظر فوسوسيور.

-F, De Saussure. Gand de linguistique General. Paris Payout 1971.

-Foucault. M. des mots et les choses. Gallimard. Paris 1966.

كيفية تعامل الطبقات الفوقية بمعطيات الواقع الاجتماعى وتحديد درجة الابتعاد او الاقتراب منه والكشف عن دوافع الابداع الفكرى والثقافى والفنى . كما توضح الاسباب المعاكسة لهذا الازدهار .

هذا يعنى أن دراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرئى المسموع تقوم على تحليل الظاهرة الاعلامية من حيث التمييز بين شكل المعرفة ومضمون المعرفة بمعنى أن دراسة تلك الظاهرة هى دراسة مزدوجة تقوم على دراسة الوسيلة ليست فقط كشكل ناقل للمعرفة بل تدرس الظاهرة من الداخل اى تحلل من خصائص مضمون الوسيلة الاعلامية تفحص نسقها الداخلى والقوانين التى تتحكم فيه من لغوية وفكرية واجتماعية كما يحدد علاقة تلك الأفكار والايديولوجيات التى تبثها تلك الوسائل بالواقع الاجتماعى اى يدرس ايضاً العلاقة بين عالم الفكر والمعرفة والواقع الاجتماعى الذى تبثه الطبقات الاجتماعية المختلفة . ومتى تحققت تلك الدراسة امكن السيطرة على المضمون الفكرى للوسيلة الاعلامية وأمكن الحكم على مدى صلاحيته واهليته للمشاركة فى العمل الانمائى والثقافى والتربوى فى المجتمع .

لقد أصبح التمييز بين الشكل والمضمون من الادوات المنهجية التى تساعد الباحث الاعلامى على حصر المقومات الاجتماعية والفكرية والتكنولوجية ، وكعوامل مساندة ومساعدة للانتاج الثقافى والفكرى . لقد اتضحت هذه الاهمية البحثية المزدوجة بعد عملية حصر للنظريات المتعددة لعلوم اللسانيات خاصة المرتبطة بنظرية الصورة المرئية . لقد أظهرت تلك النظريات ان مضمون الاعلام المرئى المسموع هو مزيج من الرموز الانسانية والتكنولوجية[١٧] . حيث يرتكز الجانب الأول لهذا المنهج على دراسة القضايا الفنية المرتبطة بتطوير الوسيلة كشكل تكنولوجى يعمل فى اطار اجتماعى محدد ، له أدواته ورموزه اللغوية فى الأبداع والتعبير . والجزء الثانى من هذا المزيج يقوم بدراسة اللغة من جانبها المعرفى والثقافى والفكرى ويقوم على حصر

(١٧) انظر فى هذا الصدد . د. نسمة أحمد البطريق « المفهوم الحديث للاعلام المرئى المسموع » دراسة فى نظرية الصورة المتحركة ٢٢ بحث تحت النشر - معهد الصحافة وعلوم الأخبار - تونس ١٩٨٥

العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية التى يمكن أن تساند هذا المضمون كقوة معبرة عن الواقع الاجتماعى الذى تعيشه طبقات المجتمع .

ان أهمية حصر المعطيات الفكرية للعملية الابداعية قبل معالجتها بالوسائل المركبه المرئية المسموعة ، وبعد العمليات الفنية والتكنولوجية المرتبطة بالوسيلة ذاتها تتضح من خلال حصر مقومات الابداع الفنى والثقافى من خلال حصر مقومات الابداع الفكرى والثقافى من خلال تلك الوسائل وايضاً الوقوف على أسباب الثغرات الفكرية والابداعية كما تساعد هذه النقطة الباحث والمتخصص الاعلامى كنهج لدراسة الثغرات الثقافية والاجتماعية التى تعانى منها بعض المجتمعات الناقلة للتكنولوجية الحديثة دون المرور بمراحل التطور الاجتماعى والثقافى المصاحبة لعمليات التقدم العلمى والصناعى والاقتصادى ، من ناحية ومن ناحية أخرى الوقوف على سلبيات البيانات الاعلامية من حيث تحديد أهمية وسائل الاتصال الخطية كأساس ومقومة فعالة فى تحديد القدرات الادراكية والمهارية للجمهور المستقبل لتلك الوسائل الاعلامية المركبة .

تلك النظرة القائمة على وحدة الظاهرة الاعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية وتكاملها يقدم لنا الادوات العلمية التى تحكم منهج دراسة الوسائل الاعلامية المرئية المسموعه فى الوطن العربى والتى ترتكز على اعتبار الظاهرة الاعلامية .

أولا : ظاهرة اجتماعية وجدت مسبباتها ومقوماتها فى سياج هذا المجتمع واستمدت كيانها من هذا الاطار الاعم للمجتمع العربى . وبمعنى اعتبار نشأة هذه الوسيلة مسحة من المسحات العامة للتطور الثقافى والفكرى فى المجتمع .

ثانياً : اعتبار مضمون تلك الوسائل نتاج فكر وثقافة وتاريخ وفن مجتمع له مواصفات بعينها ، فلكل أسلوب للتعبير والمعالجة الفنية حاميات تستمد خيوطها من التطور الثقافى والاجتماعى . ان المضمون الثقافى المرئى المسموع هو مضمون غاية فى التعقيد لأنه ناتج من وسيلة التعبير المباشرة والغير مباشرة فى نفس الوقت ، حيث ان الاديب

عندما يؤلف قصة يكتبها بأسلوب يتفق ورؤيته الادبية . تلك القصة اذا ما عولجت تليفزيونياً اى من خلال ذلك الشكل التكنولوجى المعقد فإنها تخضع لحتميات ومتطلبات الآلة المركبة التى تفرض على الموضوع رؤية خاصة . هذه الرؤية تخضع لعدة عوامل أهمها عامل التطور التكنولوجى . وكما أشرنا من قبل يجب النظر الى الظاهرة الاعلامية والثقافية المرئية المسموعة نظرة شاملة من حيث وحدة مقوماتها الثقافية والتكنولوجية والاجتماعية .

الدعامة الثانية : خصائص البيئة الاعلامية

ويرتكز اهتمامنا فى هذه النقطة على أهمية دراسة ملامح البيئة الاعلامية وتحديد المقومات التى تقوم عليها . ولقد أمكن من خلال عملية حصر بعض فروع علوم الاجتماع تقديم منهج لدراسة تلك البيئة . والذى يهمنا من إثارة تلك النقطة هو التأكيد على أهمية الانطلاق أولا من دراسة المضمون الاعلامى والثقافى والفنى لتلك الوسائل بغرض استخلاص وحصر النظريات المتعددة التى تحكم لغة المرئيات . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى استخلاص المقومات اللازمة لانجاح العملية الاتصالية التى تؤهل لهذا المحتوى الدخول فى علاقة جدلية بين المصدر والمستقبل لمضمون الاعلام المرئى المسموع .

ولقد أمكن من خلال هذه المنهجية الوقوف على سلبيات البيئة الاعلامية بصورة أدق وأشمل .

ان هدفنا ينحصر اذا فى هذه المرحلة فى وضع اطار نظرى لدراسة لغة المرئيات وبصفة خاصة التأكيد على مفهوم الصورة المتحركة كمفردة من مفردات اللغة المرئية وكأساس ومنطلق لدراسة وتحديد البيئة الاعلامية الحديثة .

لكن ما ان يطرح موضوع اللغة على صعيد الفكر النظرى حتى تبرز وتتضح مجموعة من القضايا والاشكاليات بعضها يتعلق بالاساس البنيوى والبعض الآخر يتعرض لأشكاليات التعرض لها . فليس من مهام تلك النقطة

حصر كل ما يتعلق بمفهوم اللغة المركبة . فالاشكالية المحورية التى يهتم باثارتها هو الكشف عن بعض القضايا التى تعترض عملية الاتصال الجماهيرى من خلال النظم الاعلامية المرئية المسموعة والاسباب التى تعرقل ادوارها الوظيفية خاصة المرتبطة بالتنمية الاجتماعية والثقافية فى دول العالم الثانى خاصة وهى تخطو مرحلة جديدة من مراحل اتصالات الفضاء . وحتى نحصر هذا الاطار المترامى الابعاد نشير الى نقطتين كأساس فى دراسة هذا الجانب .

(أ) المفهوم العام للغة المرئيات أو اللغة الفيلمية .

(ب) أهمية الفكر المكتوب كأساس لتحديد قدرات ومهارات المتلقى للاعلام المرئى المسموع .

إن وضع مفهوم عام للغة المرئيات يقود الى ضرورة حصر بعض نظريات علوم اللسانيات الحديثة ونظريات البنائية والتركيبية ، هذا التعرض يقودنا الى مدارس الفكر النظرى المرتبط بالمناهج الوضعية والتفسيرية فى مجالات الأدب والشعر وفروع التعبير والابداع الثقافى والفنى حتى نصل الى حصر منهجاً يقتصر على لغة المرئيات أو لغة الصورة المتحركة كمفردة ووحدة اساسية ترتكز عليها تلك اللغة الحديثة . ورغم أهمية هذا الحصر فى اثراء منهج البحث الا أن هذا المجال لا يتسع فى تلك الدراسة ، ولكننا يمكن وضع مفهوم الصورة المتحركة والاشارة الى خصوصيتها وبعض التيارات الفكرية التى تعرضت لهذا المفهوم . ان بلورة هذا المفهوم ومنهجية دراسة هذه اللغة يرجع الى المدرسة الأوربية وعلى وجه التحديد المدرسة السويسرية الحديثة الخاصة بالمناهج الوصفية . ويمكن الاشارة فى هذا الصدد الى أن الفضل الأول فى وضع هذا الاطار المنهجى يرجع الى رائد العلوم اللغوية الحديثة « دى سوسيور F.De Saussure المرتبطة بمجالات الحركة البنائية التركيبية والتى تبنتها فيما بعد نظريات كل من « ليفس ستروس » « وشوسكى » « ورولاند بارث » « وجاكوبسون » .. ويقوم هذا المنهج الحديث فى دراسة الأدب والنقد واللسانيات الحديثة على مبدأين :

الأول : تحليل الظاهرة اللغوية لاكتشاف اجزائها والوقوف على نوع وخصوصية العلاقات التى تحكم ذلك النسق اللغوى بهدف التوصل الى المعانى الكامنة . وذلك بمعنى ان هذا المنهج يقوم على مبدأ هام وهو تحليل الظاهرة اللغوية كنظام اجتماعى ونسق للقيم ويتتبع حركة المجتمع الفكرية والثقافية والاجتماعية . ومن ثم يعتبر النظام اللغوى نتاج فكر وثقافة وتاريخ وفن مجتمع له مواصفات بعينه على اعتبار ان لكل اسلوب التعبير والمعالجة الفنية حتميات تستمد خيوطها من التطور الثقافى والصناعى والسياسى .

ان تطبيق هذا المبدأ كأداة بحثية فى الدراسات المرتبطة بالاعلام المرئى المسموع فى الوطن العربى يساهم الى حد بعيد فى ادراك العلاقات التى تربط بين التطور الاجتماعى والثقافى والحضارى من جانب ونشأة انماط حديثة من التعبير الفكرى والثقافى والفنى من جانب آخر . فالتطور الاجتماعى والثقافى الذى شهده الوطن العربى من بداية القرن التاسع عشر وبالرغم من عدم تعميم هذه الظاهرة الحضارية فى أنحاء الوطن العربى الا أنها ساهمت بالرغم من ذلك والى حد بعيد فى نشاط الحركات الفكرية والثقافية والفنية وكان لها عظيم الاثر فى اثراء اللغة العربية بالفاظ جديدة تتناسب واحداث العصر الحديث وكأداة هامة للتعبير عن قضايا التحرر . أفادت هذه الحركات الفكرية والوطنية فى نهضة الصحافة العربية . وتطور الاشكال المختلفة للأدب من زاوية حديثة ادت الى نشأة المسرح العربى الحديث . وهذه الوسائل المرئية المسموعة المختلفة من سينما وتلفزيون[١٨] .

أما المبدأ الثانى الذى يقوم عليه هذا المنهج الحديث هو مبدأ الرؤية الثنائية للظواهر بمعنى ان عملية التعبير الفكرى والفنى من خلال الصورة المتحركة هى عملية مزج بين مستويين من المفاهيم ، المستوى الأول يرتبط بالواقع المادى والمستوى الثانى وهو عملية المفهوم الحسى والتعبيرى للشىء نفسه من خلال

(١٨) مراجع سابقة

A. Moles h'image.

R.Barthes. L'eompires des signes.

وضعه فى العمل الفنى أو الفكرى وايضاً يتوقف المعنى التعبيرى على كيفية التعامل برموز لغة المرئيات للتعبير عن ذلك الواقع المادى . على اعتبار ان الصورة هى أداة الفكرة وأداة التعبير عن هذا الواقع المادى والحسى . وان الصورة المتحركة تتعامل مع الفكر والثقافة من خلال رموز تكنولوجية مرتبطة بالوسيلة التكنولوجية نفسها ورموز أخرى تستمد قواعدها من الفكر الثقافى والمعرفى وتسمى رموز انسانية .[١٩]

ولقد أمكن من خلال حصر نتائج نظريات علوم اللسانيات الحديثة التوصل الى اهمية الرموز الانسانية فى تحقيق التوازن اللازم بين التوزانين الداخلية للنسق الفنى للمضمون والقوانين الخارجية الخاصة بالمهارات الانسانية المتعددة التى يجب توافرها فى مستقبل ومنتج ذلك النوع من الرسائل المرئية المسموعة .

كما أمكن التأكيد على أهمية التقدم العلمى التكنولوجى والاجتماعى والثقافى فى زيادة المفردات العملية والابداعية وزيادة فاعلية الصورة المتحركة فى التعبير عن الاحداث بصورة صادقة عن الواقع الحسى والمادى .

هذا يعنى ان قارىء الصورة المتحركة يقف امام مضمون فكرى وفنى يختلف مدى تأثيره عملية كرسالة مركبة فى الأقناع على حجم وكثافة التجارب الانسانية والقدرات والمهارات المكتسبة ، وأيضاً على حجم الرموز المتنوعة التى تحتويها الصورة المتحركة وأشكالية تعامل المبدع والمفكر بها للتعبير عن الظواهر الاجتماعية والفكرية المختلفة .

أهمية النظم الخطية كأساس فى تحديد قدرات ومهارات الجمهور المستقبل

ويمثل هذا العنصر أحد الجوانب الداخلة فى اطار الدراسات الاجتماعية الخاصة بدراسة جمهور الاعلام المرئى المسموع . من حيث حصر وتحليل خصائص الجمهور المستقبل للمضمون . وتحديد سلوكه تجاه الوسائل المختلفة للاتصال الجماهيرى . ويطرح هذا النوع من الدراسات عدة تساؤلات اهمها هل يمكن لهذا الجمهور التأثير على مضمون هذه الوسيلة بحيث يصبح قوة

لتطوير هذا المضمون . أم هو مجرد عامل سلبى لا يساعد على تطوير هذه الأدوات الاعلاميةوالثقافية الخطيرة والتى يمكنها الاسهام فى تنمية المجتمع .

لقد أثبتت الدراسات الاجتماعية بمناهجها المختلفة من ميدانية ووصفيته .. فى مجال تحليل سلوكيات المتلقى وقدراته المهارية اللازمة فى مواجهة الاعلام المركب ان الفرد عند تعرضه للثقافة والاعلام المرئى المسموع يقوم بنشاط ذهنى وفكرى متعدد الانماط . ان التعرض للغة المرئيات تفترض نوعاً من الادراك الفكرى القادر على التحليل الفورى والاجمالى اى يفترض قدرة على الانتاج والمنطقية فى الترتيب وذلك لخصوصية لغة الصورة المتحركة المرتبطة بمبدأ البنائية ، القائم على ارتباط كل جزء من اجزاء التركيب او البناء اللغوى لما يسبقه او يلحقه من أجزاء وهذا يفسر صعوبة ادراك المعنى الكلى والحقيقى للوحدة الفكرية اذا تعذر تحديد أو فهم العلاقات التى تربط كل جزء من اجزاء هذا الكيان المترابط والمتكامل[٢٠] .

وهذا يعنى ان المعانى الفكرية يتضح معاملها من خلال عملية تتابع اللقطات . وتفترض نظاماً من الممارسات المنطقية التى تفرض على المستقبل القيام بها اثناء تعرضه للمضمون .

والمبدأ الثانى الذى تقوم عليه لغة الصورة المتحركة هى ارتكازها على قاعدة فكرية وثقافية اساسها الكلمة المكتوبة القادرة على عملية الايضاح والتفسير وللظواهر الاجتماعية والانسانية المختلفة .

فبدون فهم مسبق للاحداث بتفاصيلها عن طريق الفكر المكتوب من خلال الصحيفة والكتاب لا يمكن فهم عمليات الابداع والتعبير من خلال الصورة المتحركة التى تقوم بالتجريد والتكثيف – تجريد الكلمات الى لقطات وصفية وحسبة للواقع والاحداث ووفقاً للمستوى الثقافى والفكرى والاجتماعى لعدد من المثقفين والمفكرين الذين يقومون بتلك العمليات الفكرية والثقافية فى المجتمع .

---

(٢٠) د.نسمة احمد البطريق . المرجع السابق – المفهوم الحديث للاعلام المرئى المسموع

تلك الخصوصيات تفترض حداً من الممارسات المتطلبة لدى المستقبل الاعلامي ولايمكن توافرها بدون التعليم ، تعليم القراءة والكتابة ، اى المرور بحضارة الفكر المكتوب الذى من شأنه تنمية القدرات والمهارات الانسانية .

ان الكلمة المكتوبة اذاً هى اساس المعرفة التكنولوجية الحديثة ، وتمثل أيضاً أساس الادراك الحسى والمنطقى وهو مايمكن استخلاصه من دراسات علماء النفس والتربية أمثال بياجيه ، وروز ، وبوب مامبز ودافيد جاليه ... الخ . لقد أوضحت هذه الدراسات أهمية القراءة والكتابة والعمليات الحسابية كأساس للمهارات والقدرات فى الترتيب المنطقى . فالفرد لا يمكنه المساهمة الايجابية فى العملية الثقافية والاعلامية الا بعد سيطرته على تلك المهارات الثلاثة . ولا نقصد هنا ان التعليم شرطاً أساسياً للتعرض الى برامج التليفزيون المتعددة . فليس هناك ما يمنع فى الأمر للتعرض الى أكثر البرامج تعقيداً . ان القضية الاساسية التى نود ابرازها هى قدرة الفرد على أختيار النافع ورفض كل ما يضر ويتعارض مع قيم وتقاليد المجتمع . ان تلك النظرة الثاقبة لن تتحقق الا بتوافر الشروط الاجتماعية والثقافية اللازمة .

يقودنا هذا التحليل الى ادراك سلبيات البيئة الاعلامية العربية وتخلفها خاصة فيما يتعلق بنسب التعليم المنخفضة . فمن خلال الاحصائيات المختلفة التى قدمت فى أواخر السبعينات والتى تشير الى انخفاض اعداد الذين يعرفون القراءة والكتابة ، فى نصف الدول العربية الى اقل من ٢٥٪[٢١] . هذه النسب لا تختلف كثيراً فى الثمانينات ، فلا تزال الاقطار العربية المختلفة تعانى من تلك الظاهرة الاجتماعية والتعليمية . ونحن لا نقصد بالتعليم هو مجرد الالمام بأصول اللغة ومعرفة قراءتها وكتابتها انما قصدنا من التعليم كأداة لنقل الثقافة المكتوبة وواسطة لاكتشافها والاطلاع عليها .

ان مجرد معرفة الكتابة والقراءة لاتضيف الكثير الى القدرات الانسانية مالم توظف الى تنمية القدرات والانفتاح على الثقافة والمعرفة .

---

(٢١) نحو نظام عرب جديد للاعلام والاتصال - مشروع تقرير نهائى - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ص ٥٠٣٤ ، تونس ١٩٨٥

واذا طبقنا هذه المناهج جميعاً في دراسة مقومات البيئة الاعلامية الجديدة لأدركنا البعاد والهوة العميقة التي تفصل بيئتنا العربية للاعلام والاتصال الجماهيري وبيئات العالم الغربي الصناعي المتقدم من حيث كثافة التعليم وأدوات الثقافة والاعلام المكتوب وتعدد اشكاله وأدواته . ولعل أهم تلك الأدوات الصحيفة والكتاب والتوسع في نشر هذه الأدوات بطرق ديمقراطية وتشجيع قراءتها . ولاأدعي غياب الكتاب والصحيفة العربية كلية عن حياتنا الثقافية ولكن غياب الوعي الثقافي والاعلامي الذي يتمثل في ضآلة نسب الاطلاع والقراءة واتخاذها عادة ونمط يومي للسلوك .

أن أهمية القراءة والاطلاع وعلاقتها برقي الحياة الانسانية وتطورهاتها المعقدة . ولعل أهمها تجنب الانقياد الى الوسائل الترفيهية السهلة التي تساهم الى حد كبير الى تحطيم وتهديم الارادة البشرية . ان مجرد المشاهدة العابرة في عواصم ومدن الأقطار العربية المعدة بجانب الملاحظة الدقيقة تؤكد لنا درجة الفراغ الثقافي الذي يعيشه شباب العالم العربي وهو يحاول جاهداً ملئه بوسائل التسلية السهلة ولعل أكثر تلك الوسائل انتشاراً نوادي الفيديو المخصصة لبيع وتأجير أفلام وشرائط قد تبث افكار من شأنها تحطيم الشخصية وعرقلة نموها[٢٢] .

وتفوق اعداد هذه النوادي اعداد المكاتب المخصصة لبيع الكتب كما تفوق ايضاً أعداد صالات العرض السينمائي التي غالباً ما تعرض افلام مرت بين أيدي الرقابة الوطنية .

ان هدفنا من أثارة تلك الملاحظات هو التأكيد على ضرورة أهمية دراسة هذه الجوانب دراسة اجتماعية دقيقة وتحليل البيئة الاعلامية العربية تحليلا علمياً يستند الى المناهج الاجتماعية المتعددة من ميدانية ووصفية .

ونتساءل عن كيفية وضع نظرية عربية للاتصال والاعلام الجماهيري ونحن لم نحلل بعد المداخل الاجتماعية والثقافية ولم نقم بدراسات تحدد نظم

(٢٢) د. محمد النويهي . ثقافة الناقد الأدبي مكتبة الخانجي ط ٢ - بيروت ١٩ أنظر أيضاً د. احمد أبو مطر ، أساليب ومناهج ندوقية لدراسة الأدب العربي قضايا عربية عدد يناير ص ١٤١ - ص ١٦٢ .

العلاقات الاجتماعية وتحديد سلوكيات الجمهور المستقبلة للوسائل الاعلامية المختلفة . وتحليل مضمون تلك الوسائل واستكشاف التداخل بين النظم اللغوية المتعددة ومقوماتها وبصفة عامة حصر المعلومات والدراسات العلمية الكافية لتحديد مقومات وعناصر البيئة الاعلامية وخاصة ونحن على مشارف اتصالات الفضاء .

لا بد من وجهة نظرنا ان يتجه علماء الاتصال والاعلام الجماهيرى العرب الى دراسة هذه النقاط والتى تشكل مقدمة ضرورية تسبق نظرية عربية نستمد فروضها من واقع بيئتنا وقضايانا .